قصة قصيرة

أربع عشرة قصة قصيرة

محمود شقير

حظ

ابتسم الحظ ، فجأة ، للكاتب المغمور (هو يعتقد أن ثمة مؤامرة خسيسة تستهدفه ، فتجعل حظوظه في الشهرة ليست على النحو المطلوب). قال لنفسه وهو معجب بها لكثرة ما يحفظ من مأثورات وأمثال ، ظلت عالقة بذهنه منذ سنوات الدراسة في المدرسة : إذا هبت رياحك فاغتنمها

حدث الأمر صدفة ، (وكل صدفة أحسن من ميعاد كما يقال) حينما دخل المكتبة الوحيدة في المدينة ليرى إن كان ثمة جديد في المكتبة . هو لا يشتري الكتب دائماً ، لأن راتبه الضئيل لا يسمح له بمثل هذا الترف ، لكن التردد على المكتبة أصبح عادة من عاداته التي لا يستطيع مقاومتها ، وحينما يقوم هو بالحديث عن رسوخ هذه العادة لديه وتمكنها منه ، فلا يطيب له إلا تشبيهها بالداء العضال الذي لا فكاك منه ، لكنه في العادة لا يدخل المكتبة صفر اليدين ، فهو يحرص دائماً على أن يصطحب معه كتاباً ، يحضره من مكتبته الخاصة ، ويقرأ فيه كلما وجد فرصة سانحة ، أو كلما وجد ظرفاً ملائماً لتأكيد صفة كونه مثقفاً لا ينقطع عن القراءة أبداً . ومع ذلك ، فإذا وقعت عيناه على كتاب يستحق أن يقتنيه ، فإنه يستجمع أطراف شجاعته (هكذا يقول لزملائه الموظفين في اليوم التالي) ويغامر بما لديه من مال زهيد ، ويشتري الكتاب ، يقرأ فيه عشر صفحات أو أقل قليلاً ، ثم لا يلبث أن يصيبه الملل ، فيطوي الكتاب إلى وقت آخر قد يقصر أو يطول بحسب المزاج والأحوال.

لكن الحظ ابتسم له في تلك المكتبة بالذات ، وكان يعي في قرارة نفسه ، أن تردده

على المكتبة لم يكن سببه الوحيد متابعة ما هو جديد في عالم الثقافة والأدب ، فقد أسر اليه بعض أصدقائه الخلص، أن ثمة عاشقات للأدب وللأدباء يترددن دون تردد على المكتبات ، لعلهن يحظين بالتعرف على واحد من هؤلاء الذين حباهم الله بموهبة الكتابة . كان يبرم شاربيه الأشيبين وهو يستمع إلى مثل هذه الأقوال، ويوقن في قرارة نفسه أنه هو المقصود بها قبل غيره من الكتاب . كان أصدقاؤه يستطردون في الحديث عن مفاتن مثل هؤلاء النسوة ، وعن حسن شمائلهن ، وعن مقدار ما لديهن من أفانين العشق والغرام . وعند هذا الحد ، كان يتذكر أم البنين ، التي كفت عن التجاوب مع رغباته بعد مولودها السابع . كانت تقوم بواجبها الزوجي تجاهه على فترات متباعدة ، ومن دون رغبة فعلية ، ترفع ثوبها الى ما فوق سرتها ، كلما مكنته من جسدها ، ثم يركبها النعاس ، وهو في ذروة التحامه بها . حاول مراراً أن يخرجها من هذا الموات المبكر ، ولكن ، كناطح صخرة يوماً ليوهنها ، مع الأسف الشديد!

هل يعتبر اخفاقه مع زوجته دليلاً على نقص موهبته ؟ قطعاً لا ، فكل الدلائل تشير إلى عكس ذلك ، فهو ، وبشهادة زملائه، ذرب اللسان ، متمكن من ناصية اللغة ، حكيم في جل تصرفاته، حتى أنه لم يترك لأية حكومة سبباً لاضطهاده ، ولم يترك لأي حزب سياسي فرصة لاصطياده وضمه الى صفوفه . كان دوماً يشير الى رأسه مفاخراً : هذا راس مش بطيخة ، وبعد ذلك بلحظات، يتأكله الخزي من هذا التعبير الركيك ، فيبادر الى تدبيج مقالة عرمرمية حول الكلمات السوقية المبتذلة وخطر استخدامها على لغة الضاد ، ثم يرسلها الى الصحيفة اليومية لعلها تنشرها في صفحتها الثقافية . ينتظر عدة أشهر ، ثم يسقط في بئر اليأس، ولا ينتشله منها سوى قناعته بأن ثمة مؤامرة تستهدفه.

هل قلنا إن الحظ ابتسم له فيما كان يجوس أرجاء المكتبة ؟ بلى ، فقد كانت المكتبة تغص ذلك النهار بعدد غير قليل من النسوة الجميلات . كن كما لو أنهن قادمات من كوكب آخر ، أو هكذا خيل إليه وهو يمعن النظر في سيقانهن اللواتي مثل المرمر ، وفي نهودهن اللواتي يتفلتن للخروج من تحت بلوزات الحرير . قال لنفسه : هذا أوان الشد فاشتدي زيم ، ثم تذكر أنه يحفظ عدداً غير قليل من أبيات الشعر ، لكنه لا يجيد تأليف بيت واحد من الشعر . لقد حاول ذلك مراراً ، فلم يحقق أي نجاح يذكر ، مما جعله في بعض الأحيان يتشكك في مستوى موهبته.

من بين هؤلاء النسوة ، برزت له امرأتان . يا إلهي ! امرأتان في اللحظة نفسها ! كان يكفيه لو أن امرأة واحدة فعلت ذلك ، لكن الحظ حينما يبتسم لا يعرف حدوداً ولا معايير ، اقتربتا منه وهما تبتسمان ، وتكشفان عن أسنان منضدة ، مما ذكره على

الفور ببيت الشعر الذي طالما أعجب به:

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

هل يجازف ويقول : فأمطرتا لؤلؤاً ! لا ، لا ، من غير المعقول أن يعبث بالشعر مثل هذا العبث

سألتاه في وقت واحد تقريباً : هل أنت شاعر ؟

شعر كأن خنجراً قد انغرس في صدره ، لكنه تماسك أمام الطعنة النجلاء ، وقال: بل أنا ناثر وأي ناثر . ثم فكر أن يدخل معهما في حوار شيق حول جملة " أكلت السمكة حتى رأسها " ، غير أن المرأتين الجميلتين أعرضتا عنه في الحال ، فاتخذ قراراً فورياً بقرض الشعر حتى لو كلفه ذلك حياته.

وعلى رغم ذلك ، فقد ظل يحدث أصدقاءه عن تلكما الابتسامتين الرائعتين ، حتى ان أحدهم قرر أن يكتب مسلسلاً في ثلاث عشرة حلقة ، للتلفاز ، مستوحى من تلكما الابتسامتين

ترقب

جرس المنبه يرن باندفاع أرعن ، يستيقظ مجفلاً ، ولا يدعه يكمل الرنين . يفتح الشباك على صباح عابق بروائح الربيع . هي لم تستيقظ بعد ، كما لو أن جرس المنبه لم يرن . كان قميصها ينحسر دون قصد عن جسد سادر في النوم . هو يعرف عاداتها ، ويعرف أنها تتوقع منه مبادرات حميمة في الصباح . مرة يلقي برأسه على بطنها ، ويظل مضطجعا ، يتأمل ما ينكشف من جسدها في حياد . تستيقظ ، ثم ترسل يدها الحانية الى شعر رأسه ، تتركها هناك بعض الوقت . ومرة أخرى ، يتأمل ركبتيها ، وهي تنام مثنية الساقين ، فتبدوان مثل برجين صغيرين على تخوم مدينة حافلة بالأسرار. يطبع قبلة على احدى الركبتين ، تنهض ، ثم تنهمك في مهمات لا بد منها كل صباح.

تنطلق الى المطبخ ، ويكون هو قد سبقها الى الحمام ، يغتسل في دقائق معدودات .تدخل عليه الحمام ، وتطلب منه أن ينتبه للإناء الذي فوق النار . يتابعها لحظة وهي تحت الماء ، يغلي الماء في الإناء ، يلقمه عدة ملاعق من البن ، ويكون المذياع مستغرقاً في سرد آخر وقائع القمع ، ومصادرة الأرض ، وتوسيع الاستيطان . تخرج من الحمام ، تعد وجبة سريعة ، تطلب منه أن يحضر شيئاً من هنا ، وشيئاً آخر من هناك ، ويكونان في أتم انسجام . يبكي الطفل ، تدني ثديها الأيسر من فمه ، ثم تبعده ، فقد عضه في الليل عضاً موجعاً (ليس الطفل هو المقصود) تلقمه ثديها الأيمن ، وتنظر

صوبه في عتاب خفيف ، تقول عيناه لها : أنت السبب.

هي السبب ! ليكن . فذلك أدعى إلى اغتباطها، وهي تفعل كل شيء تعبيراً عن فهمها الخاص لعش الزوجية . في الليل هي حمامة شديدة التطلب ، وفي النهار هي نحلة تسعى بكل اندفاع . لكنها تظل متنغصة قلقة حتى يعود ، إذ يكفي أن تستبد رغبة القتل بأحد الجنود ، حتى يشرع في اطلاق الرصاص ، ويجري تمرير الجريمة تحت مختلف الحجج . وهي كثيراً ما تراه في أحلام يقظتها ، عائداً إليها وهو ملفوف في علم ، وهي دائماً توصيه بضرورة أن يتوخى الحذر، وأن يكون شديد الانتباه، ولا يطمئن بالها إلا حينما تغلق عليها وعليه باب البيت ، تعيش الليل معه بطيش محموم ، فيستجيب لطيشها بطيش يوازيه.

تغادر البيت ، ويكون هو قد مضى إلى وظيفته في المدينة البعيدة ، يجتاز نحوها كل يوم طريقاً طويلاً وثلاثة حواجز يرابط عندها الجنود . تمضي بالطفل إلى الحضانة ، ثم تذهب الى طالباتها في المدرسة القريبة ، ويكون قلبها – رغم الخوف والقلق – معموراً بآمال صغيرة ، لكنها تكفيها وتكفيه.

تعود إلى البيت . ويعود هو إلى البيت . ويستمر كل يوم في الذهاب إلى وظيفته ، يجتاز الحواجز، ولا يقتله الجنود ، لكنها لا تكف في النهار عن خوفها المكتوم ، ولا تكف في الليل عن طيشها المحموم.

صوف

النعاج في المرعى ، يرعاها البدوي الكهل ومعه حماره وكلبه . الحمار ينهق بين الحين والآخر دون سبب مقنع ، فيبدو كمن يمارس خروجاً فظاً على نص البرية التي تتمدد في استرخاء تحت شمس الظهيرة الحارقة . الكلب يعرف الأصول خير معرفة ، ينزوي بالقرب من صخرة وينام ، ينام على نحو مفرط في النوم ، وبما يوحي بأن الأمن مستتب تماماً، ربما لأن المدى مكشوف ، فلا خوف من مداهمة الذئاب للقطيع على حين غرة ، وربما لأن القطيع هاجع في السهل الآن ، فلا خوف عليه من الضلال في الشعاب البعيدة. الكلب ينام على جانبه الأيمن ، ماطّاً رقبته الى أقصى حد ممكن ، تاركاً لذنبه فرصة الانتشار دون محاذير ، والبدوي يشرب الحليب من وعاء قديم ، ويستغرق في أحلام يقظته البسيطة التي تتمحور غالبا حول الذئاب.

الحمار يخرج على النص مرة أخيرة ثم يصمت كما لو أن ندماً مفاجئاً أصابه ، والبدوي يتأمل كلبه النائم ، يغبطه على ما هو فيه من دعة واطمئنان ، والمرأة تغزل الصوف بمغزلها اليدوي ، تدحرجه على فخذها العاري ، الذي تداعبه نسمات الريح

القادمة من رؤوس الجبال ، كما لو أنها تحمل معها رسائل خفية مكتومة.

البدوي ينام مثل طفل على إيقاع الحليب ، وبائع الحلوى الذي اعتاد أن يزور المضارب مرة كل شهر، يقترب من المرأة التي تغزل الصوف ، يعرض عليها أصنافاً من الحلوى ، تضع المغزل في حضنها ، وتبدو حائرة قبل اتخاذ قرارها الأخير ، والكلب ينهض مجفلاً من نومه ، ينبح في فزع ، كما لو أنه يتشمم رائحة ذئب قريب.

الكهل

كان الصباح رمادياً، ثمة غيوم متجهمة في السماء، وبرودة خفيفة تتسلل الى أجساد المارة ، والبنت التي افترقت عن حبيبها بعد خصومة مريرة ، ترنو عبر زجّاج السيارة الى طالبات المدارس السائرات فوق الأرصفة ، تغبطهن على الابتسامات الوادعة التي ترتَسم على وجوههن ، وتشعر أن غصة تنمو في داخلها بعد أن اكتشفت أن ذلك الولد كان يلعب معها لعبة خبيثة منفرة.

البنت تتمنى لو أنها لم تدخل في التجربة المرة . في البداية كانت التجربة بالغة العذوبة، والبنت الآن لا تعرف كيف تستعيد ابتسامتها البريئة، والكاتب يبحث عن حبكة لكي يكتب قصته ، وثمة كهل نحيف يجلس الى جوار البنت يرقب المشهد بحذر ، ويتظاهر بأنه لا يلاحظ شيئاً ، والكاتب يتشمم بأنفه مثل كلب جائع ، والبنت تبدو كأنها على وشك أن تقول : ولكن ما علاقة الكاتب بشؤوني الشخصية ، والكاتب يبدو كمن يريد القول : القصص ملقاة على قارعة الطريق، وأنا لا أتطفل على أحد.

والبنت تهبط من السيارة، يفسح لها الكهل في المكان كي تمر من جواره ، يصطدم نهدها المشرئب بذراعه، لكنها لا تأبه للأمر لأنه في عمر والدها، والكهل أيضاً تظاهر بأنه لا يأبه للأمر بالرغم من تيار الكهرباء الذي هز بدنه ، والكهل لا ينكر أنه أصبح مشغولاً بحكاية الأعمار منذ أن شارف على الخمسين ، لذلك ، فقد خمن أن الكاتب أكبر من البنت بعشر سنوات على الأكثر، وأصغر منه بعشرين عاماً على الأقل .الكاتب يهبط من السيارة هو الآخر، وقد أثار فضول الكهل بفعلته ، بل إنه أثار حفيظته ، لأنه لم يكن يتوقع منه أن ينزل من السيارة في هذا الموقع بالذات ، ربما لاعتقاده أنه يعمل مدرساً في المدرسة التي لم تصلها السيارة بعد، ولاعتقاده أنه لن يكون جريئاً ومبادراً الى هذا الحد . يتوقف الكاتب قرب البنت فوق الرصيف ، كما لو أنه يبحث عن نهاية لِقصته ، ولكن من قال إنه معني بكتابة قصة في مثل ذلك الصباح!

الكاتب يبتسم للبنت، والبنت تبدو مندهشة بعض الشيء، والكاتب يقول كلاماً ما ، والبنت تصغي في انتباه ، ولا تتفوه بأية كلمة ، والكاتب يقبض على راحة يدها ،

والبنت تبدو مترددة ، ولا تدري هل تبقي راحة يدها في يده ، أم تحررها من قبضته ، لكنها، في اللحظة الأخيرة ، تسحب يدها دون استفزاز، والسيارة التي تقل الكهل تبتعد الآن.

كانا يمضيان ، كتفها ملاصق لكتفه ، ويداهما متقاربتان ، والكهل يسأل نفسه بعد أن غيبه المنعطف : هل كان ثمة كاتب مع البنت فعلاً ؟ ثم ما يلبث أن يتساءل من جديد :هل كان ثمة بنت أصلاً؟

لكنهما ، في تلك اللحظة ، كانا يواصلان سيرهما المتئد فوق بلاط الرصيف ، ولا يكترثان لأحد.

الحفلة

ذهبت الى الحفلة في الموعد المحدد . ذهب الى الحفلة في الموعد نفسه تقريباً. ارتديت معطفي الثقيل . خبرتي بالطقس في مثل هذا الوقت من السنة هي التي دفعتني الى ذلك . كانت القاعة في مركز المدينة ، وكان بيتي بعيداً عن مركز المدينة.

جاء رئيس البلدية الى الحفلة ، له ابتسامة خافتة لا تفارق محياه ، بغض النظر عن تقلبات الوضع العام، وجاءت زوجته ترتدي معطفا من جوخ ، وعلى خديها أصباغ فاقعة ، كعادتها ، ودون اكتراث لتقلبات الوضع العام . جاء رجال الصحافة ومحطات التلفزة ، اتخذوا لأنفسهم مواقع ملائمة . كل منهم يحلم بفرصة تلفت إليه الانتباه. اتخذت لنفسي موقعاً يجعلني قادراً على مغادرة الحفلة في الوقت المناسب ، فأنا لا أحب أن أصرف وقتاً كثيراً على الحفلات.

جاء رجالات المجتمع . كل منهم له حلمه الخاص . جاءت النسوة المتمرسات على حضور المناسبات الاجتماعية ، كل منهن لها عطرها الخاص . رحت أبحث عن امرأة عرفتها منذ زمن ثم ضيعتها ، كانت وديعة مثل حمامة ، ولا تحب أن تلفت انتباه أحد ، ولذلك مال قلبي إليها . راح يبحث عن أية امرأة، وكان طوال الوقت يتشمم عطور النساء ويتقرب إليهن بمجاملات باهتة ، وكلام سقيم يتردد في العادة على وتيرة واحدة في أجواء الحفلات . ذات ليلة ، دخلت المطعم الرئيس في المدينة ، كنت وحدي. ذات ليلة دخل المطعم الرئيس في المدينة ، كان وحده . رأيت رجالاً موسرين يحتفلون لسبب ما، وكانت معهم نسوة مبتهجات ، كانوا يغنون وكن يغنين معهم ، وكانت إحدى النساء ، حينما يستبد بها الطرب ، تدفع الكرسي إلى الخلف ، تقف باسترخاء ، تهز ردفيها ذات اليمين وذات الشمال ، ثم تصيح بجذل : مارسيدس ! فيرد عليها الآخرون وقد تعتعهم السكر : مارسيدس ! اعتقدت لوهلة أن المرأة ربما كانت تعمل

في وكالة لهذا النوع من السيارات ، وهي راغبة في خلط الجد بالمزاح . لكنها لا تلبث أن تقول وكأنها تفاجئ الجميع : ميتسوبيشي ! فيرد عليها الآخرون وهم يتأملون جسدها : ميتسوبيشي ! حتى لم تبق على نوع من أنواع السيارات شرقاً أو غرباً الا ذكرته . فأيقنت أن الأمر لا يعدو كونه مزاحاً هابطاً مُسفّاً ، فلم يرق لي جو المطعم في تلك الليلة فخرجت . راق له جو المطعم في تلك الليلة ، سمعته يردد في نشوة: مارسيدس ، ميتسوبيشي ، (والقائمة تطول بطبيعة الحال).

أُلقيت في الحفلة كلمات مكررة ، دون التفات الى ضرورة التقيد بالوقت . وزعت كؤوس العصير وقطع الجاتوه . لم يكن ممكناً توزيع مشروبات كحولية لأسباب عديدة ، ومع ذلك فقد وضعت في المطبخ عدة زجاجات من الخمر، انزلق إليها عدد من المدعوين دون أن يلفتوا انتباه أحد ، أضافوا الى كؤوس العصير ما شاءوا من خمر ، ثم عادوا الى القاعة ، لمواصلة النقاش حول الوضع الراهن ، مع عدد من المعنيين ، وغير بعيد عن النسوة اللواتي وقفن في الجوار.

لم أعثر على المرأة التي ضيعتها . بدأ التبرم يظهر على سحنتي . رأيته مع عدد آخر من الرجال والنساء يعودون من المطبخ ، كانت قهقهاتهم تعلو وتخفت . فجأة برزت من بينهم امرأة، هزت ردفيها ثم صاحت : مارسيدس ! صاحوا خلفها مرددين: مارسيدس!

غادرت القاعة . تمشيت في شوارع المدينة الخالية غير آبه بالطقس البارد . مررت للمرة العاشرة من أمام القاعة . رأيتهما يغادران المكان ، يدها في يده وليس ثمة كلام .حدقت فيهما وسألت نفسي بارتباك : هل أنا هنا حيث أنا الآن ، أم أنني هناك حيث يسيران . استبدت بي رغبة في المناكفة ، صحت في هدأة الليل وأنا أقترب منهما: مارسيدس . حدّقا فيَّ لحظة بكل استغراب ، ثم واصلا سيرهما دون اكتراث . خجلت من نفسي . شعرت بفداحة الفقد ، ركضت في الاتجاه المعاكس ، وكنت وحدي.

هرم

سيدخل عليها ذات صباح وهي منهمكة في صرف وصفات الدواء ، ستقف مذهولة وهي تتمعن في ملامحه ، وسيشعر بشيء من الحزن وهو يحدق في ملامحها التي تسلل إليها عبث السنين، وسيرى أن وزنها قد تضاعف ، وستشعر هي بالحرج لأنها ستعرف أنه يرى ما لم يكن يحب أن يراه.

كانت نحيلة القد لا تهدأ أكثر من ثانية واحدة في المكان الواحد ، وكان يلذ لها أن تتسلق درجات السلم الحديدي ، لكي تجلب الدواء من الرف العلوي ، فيما يجلس هو

بالقرب من الكاونتر، متتبعاً حركاتها بعينين طافحتين بالخجل ، فلا يواصل النظر كيلا يصعقه بياض الفخذين الرشيقين.

ستسأله : كيف عدت ؟ سيقول لها : عدت وكفى ، (يعدها بأنه سيروي لها التفاصيل في مرة أخرى). ستشتبك أيديهما بمصافحة حارة ، وستبدأ أعينهما رحلة استكشاف سريعة من جديد(بدافع الفضول لا أكثر هذه المرة). ستقرأ في عينيه كلاماً غامضاً ، سيقرأ في عينيها أسى ودموعاً.سيعيدها عشرين سنة الى الوراء ، وستعيده عشرين سنة الى الوراء.

جاءها ذات مساء وفي يده جرح سببه له انزلاق مفاجئ فوق درجات السوق. راحت تضمد جرحه بحنو فاستكان بين يديها ، وبدا أنها تستمتع بما تفعله ، فأطالت التضميد كأنها لا تحب أن تنتهي منه.

سيضحك حينما تذكره بتلك الحادثة ، وستضحك وهي تستعيد تفاصيل المشهد الحميم ، سيطفو فوقهما صمت مفاجئ ، (من يستطيع أن يردم هوة عمقها عشرون سنة في دقائق معدودات) ! سيكف عن التحديق في عينيها كيلا يسبب لها المزيد من الحرج . ستسأله إن كان قد تمكن من زيارة أسواق المدينة التي كان مشغوفاً بها ، سيقول لها إنه لم يكف منذ لحظة وصوله عن التجوال فيها . ستلاحظ أنه لم يأت إليها فور عودته ، (ربما كان عاتباً لأنها لم تسأل عنه) ستبدي له بعض الاعذار لأنها علمت بأمر عودته فلم تبادر إلى زيارته أو مهاتفته. سيشعرها بأنه يقبل عذرها دون تمحيص .سيحل بينهما الصمت ثانية . ستقول وهي ترنو عبر الباب نحو الرصيف : المدينة تهرم ، ولا بد أنك لاحظت ذلك . سيهز رأسه ولا يجيب . سيغتنم اللحظة التي يدخل فيها زبون جديد ، ستنشغل عنه بحثاً عن الدواء ، سيقول بضع كلمات ثم يغيب.

رقص

وصلوا الى المكان المخصص لهم في الطرف القصي من المدينة الشاسعة . وصلوا من كل جهات الأرض ، وعلى مقربة من البحر أقاموا . كانت اجتماعاتهم الطويلة مكرسة لقضية واحدة دون غيرها (مما يدفع الى الملل في بعض الأحيان) ، وحينما كان يستبد بهم التعب ، كانوا يغادرون القاعة الفسيحة ، يقتربون من الأمواج التي تتلاشى عند رمل الشاطئ ، يتأملونها كما لو أنها تحمل رسائل غامضة من شاطئ بعيد يحفظه آباؤهم عن ظهر قلب.

في اليوم الأول تحدّثوا عن مشاق السفر ، عن المطارات ورجال الأمن ، عن الدول الصديقة والدول غير الصديقة . في اليوم الثاني تبادلوا الذكريات ، وأكثروا من سرد

القصص التي تدور حول التين والزيتون والعنب . في اليوم الثالث أطال الرجل القادم من المدينة الوادعة النظر الى المرأة التي انفصل عنها حديثاً . كان يحاول وصل ما انقطع، لأنه يشعر بالحاجة إلى امرأة في مثل هذا الطقس الممل الثقيل. كانت المرأة القادمة من المدينة الوادعة، تدرك ما يعتمل في نفس الرجل، فقد جربت ذلك في ليالي سهاده الطويلة، وكان يلذ لها جنونه المنفلت من كل عقال، فلم تتذمر من نظراته النهمة، كما لو أنه يراها للمرة الأولى.

في اليوم الرابع احتدم الخلاف بينهم وتناثر الكلام حتى اختلط رذاذه برذاذ الماء على شاطئ البحر القريب ، وكان السبب عائداً الى بحر بعيد في الأذهان. (في حمى الخلاف ، تعطل الاجتماع، فوجد الشعراء المغمورون فرصتهم المنشودة لإلقاء أشعارهم غير الطازجة على أناس يتثاءبون من شدة العطالة والاهمال غير المقصود الذي وجدوا أنفسهم فيه).

في اليوم الخامس يعاني كبيرهم الذي لم يعلمهم السحر (أصبحوا واقعيين ، فما حاجتهم للسحر اذن)! من ارهاق مفاجئ ، سببه السهر المضني من أجل العثور على صيغة يقبل بها القادمون من كل أطراف الأرض، (ولا ننسى بطبيعة الحال ذلك الذي ينام الآن مع مطلقته في غرفة الفندق بعيداً عن صخب المجتمعين ، منوهاً بين الحين والآخر، وهو يلثم شحمة أذنها الطرية، إلى أنه كلما توغل في متاهات جسدها اكتشف أسراراً ما كان على علم بها من قبل، فتزداد هي تألقاً في لعبة كشف الأسرار، وتغتنم الفرصة المواتية للحصول منه على تنازلات ما كان يمكنها إحرازها في غير هذا الموقع). ينقلونه إلى قسم الإنعاش في المستشفى القريب، ولا يعود الاجتماع إلى مواصلة أعماله إلاّ بعد أن اطمأنوا إلى أنه قد اجتاز مرحلة الخطر، وهو الآن يتماثل للشفاء وسط عناية مشددة يمارسها في الليل والنهار أطباء مهرة وممرضات ماهرات.

في اليوم السادس كانوا يتبادلون العناوين التي تساعدهم على تحمل المنافي البعيدة.

في اليوم السابع توصلوا الى اتفاق حول الهدف الذي اجتمعوا من أجله . تجمهروا في الصالة التي لا يفصلها عن البحر القريب سوى شارع وعشب على منحدر ورمل على شاطئ نحيل . نصبوا حلقة للرقص كأنهم في واحدة من القرى النائية التي شهدت ليالي مراهقاتهم الشرسة ، توجهوا بالنداء الى زوجة القائد الذي لم يقتل بعد كي تشاركهم رقصهم ،(هذه اضافة جديدة لم تشهدها سهرات الأعراس في تلك القرى)(بطبيعة الحال، فإن للمنفى أحكامه وسننه).

تتقدم الزوجة الى مكان الصدارة في أول حلقة الرقص ، ترفع ساقها بتؤدة ووقار

، يهتز الجسد الرصين، يندلع الرقص كأنهم جميعا في مهرجان . تتوقف الزوجة عن الرقص بعد أن أطلقت شرارته الأولى ، تبتعد نحو الركن الذي يقف فيه (ضاد) واجماً مشدوهاً ، متسائلاً بينه وبين نفسه : الى أين تمضي بنا السفينة؟ (ما دام البحر قريباً فلا بد من سفن ، ولو في الخيال)تبكي زوجة القائد بصمت ، ويقف الرجل الذي تصالح مع مطلقته مهموماً مفكراً في خطة للتملص منها ، بعد أن التقى قبيل هذا المساء في ردهة الفندق بامرأة قابلة لكل الاحتمالات ، ولا يلبث (ضاد) بعد أن استحال مشهد الرقص الى فولكلور معاد ، أن يغادر الصالة متجهاً الى البحر القريب ، يستحم في الموقع الخطر رغم التحذيرات التي تشير الى ذلك ، ثم يعود الى الفندق الذي يشبه المتاهة ، فلا يصل الى غرفته التي تشبه الآن الغرف الأخرى، إلا بعد الفجر بقليل.

ضريح

كانت الحافلة تتوقف بين الحين والآخر ، وكانوا ينزلون منها لشراء بعض التذكارات ، أو للتفرج على قرد يؤدي حركات بهلوانية ، أو أفعى تتمايل على أنغام مزمار ، وكان ثمة نساء وأطفال يتسولون بضراعة لعل هؤلاء الغرباء يتصدقون عليهم بشيء ما.

جاءوا من مختلف أنحاء المعمورة لحضور المؤتمر . بعضهم يعلن في لهجة ظافرة أنه كان محظوظاً حينما وقع عليه الاختيار للسفر ، فهذه البلاد تستحق أن يزورها المرء ، ولو مرة واحدة في العمر . كان هذا على الأقل هو رأي المرأة البلغارية التي لم تتجاوز الثلاثين من عمرها . قالت للرجل الذي لم يتجاوز الأربعين من عمره القادم من الساحل الكنعاني ، انها سعيدة لأنها ترى الآن بأم عينها البلاد التي ترعرعت فيها حضارة قدمت للبشرية الشيء الكثير . كان الرجل يوافقها الرأي في كل ما تقول، ثم يأخذ ، في اللحظات التي تصمت فيها ، يتأمل جمالها وهي ترفل في زيها الباكستاني ذي اللون الوردي ، وكان يسألها عما إذا كانت قد تأقلمت مع الحضارة الأخرى التي تعيش الآن في أحضانها ، فتجيبه أنها قطعت شوطاً معقولاً على طريق التأقلم ، وهي تفعل ذلك تعبيراً عن حبها لزوجها ، الذي عرفته على مقاعد الدراسة الجامعية ، حينما جاء الى بلدها في بعثة دراسية.

كانت رشيقة ناعمة ، وهي تبدو قانعة بحياتها ، مما ضاعف من فضوله نحوها. قالت له رداً على أحد أسئلته ، انها لم تعد تحب أن ترتدي بنطال الجينز ، وهي تفضل عليه السروال الباكستاني المصنوع من أقمشة خفيفة لا تضغط على الجسد . كانت تجلس الى جواره في الحافلة ، تتصرف بعفوية وبراءة ، تتبادل معه بعض التعليقات على المشاهد التي تظهر من شباك الحافلة ، ثم لا تلبث أن تختفي . كانت رقة صوتها

تشي بتلاقح حي لأكثر من حضارة في داخلها . راق له في احدى اللحظات أن يدني رأسه من صدرها ، ليستمع الى وجيب قلبها ، لكنه خشي من التباس المعاني والمفاهيم ، ومع ذلك فقد ظلت رغبته محتبسة في صدره ، مما جعله مغتبطاً حيناً لمجرد وجودها الى جواره ، متخوفاً حيناً آخر من أي سوء فهم قد يفسد كل شيء بينهما.

كانت الحافلة تتوقف أمام المبنى الأعجوبة الذي نجا من دمار الحروب ، وكانت تسير أمامه بكل وداعة ، حقيبتها الجلدية تتدلى من كتفها الأيمن ، وصندلها الخفيف ينم عن قدمين صغيرتين . انهمكت مثل بقية أفراد الفوج في تأمل التفاصيل الدقيقة التي يتشكل منها المبنى . كان الدليل يتحدث عن ألوف العمال الذين ظلوا يعملون في هذا المكان طوال اثنين وعشرين عاماً حتى أنجزوه. اقتربت منه وقالت في همس محبب : كم كان هذا الرجل مخلصاً لزوجته ! ثم أضافت : زوجي ينتمي للحضارة نفسها التي أنتجت هذا الأثر النفيس . اقترب منها ، كادت شفتاه تلامسان شحمة أذنها، قال بصوت خافت : لكنه بعد موتها انغمس في العربدة والمجون . علقت في حياد ، كما لو أنها لم تفاجأ بما قال : سمة كانت ملازمة للكثيرين من حكام ذلك الزمان .سألها في فضول : هل تغفرينها لهم ؟ قالت : لا ، ولكن ... توقع منها أن تتم جملتها ، لكنها لم تفعل . ثم قالت إنها تشعر بالتعب.

جلست على حافة سور واطئ ، جلس الى جوارها . كان سروالها الوردي ينحسر قليلا عن أسفل ساقيها اللذين ينبت عليهما زغب خفيف . وكان الدليل يأخذ الفوج الى أبعد نقطة في المبنى – الضريح ، وهي تواصل ثرثرتها الشيقة ، وهو يستمع إليها بشغف ، وبين الحين والآخر كانت تتحدث عن زوجها ، كما لو أنه يجلس معهما هنا فوق هذا السور الواطئ ، ليس بعيداً عن ضريح المرأة التي أحبها زوجها بالرغم من نزواته الكثيرة ، التي لم تكن تعد ولا تحصى ، مع الأسف الشديد.

لاريسا

في لاريسا شيء محبب ، لكنه لا يعرف كنهه بالضبط . التقاها أول مرة في المطار .كانت مثل مهرة جامحة ، وكان خارجاً للتو من رطوبة الزنازين . رافقته لاريسا الى البحر البعيد تاركة مدينتها الصاخبة . هي تفعل ذلك كل عام ، ترافق الضيوف القادمين من ذلك البلد الصغير الذي لم يهنأ يوماً ولم يعش لحظة استقرار ، وتقضي عدة أسابيع على شاطئ البحر ، ثم تعود الى مدينتها وقد لوحت شمس الصيف بشرتها ، وجمعت في صدرها حكايات جديدة ، لم تكن تجد أي حرج في سردها على زميلاتها . كانت تقول إنها لا تمل صحبتهم ، يلاطفونها بكلام عذب حيناً ، ويعلنون

دون مواربة اشتهاءهم لجسدها المكشوف أمام الرمل والماء حيناً آخر ، تصدهم برفق ، وتصدهم بخشونة إذا تمادوا، ولا تشعر بالندم لأنها حسمت أمرها بالبقاء في محيطهم حينما اختارت أن تدرس لغتهم . كانت تقول كلما تعرضت لسؤال عن علاقتها بهم، ثمة شيء محبب فيهم ، لكنها لا تعرف كنهه بالضبط.

قالت له في عفوية محببة : سأخلع فستاني . كان مسكوناً بالخجل . أردفت دون تردد : لماذا لا تخلع ملابسك ؟ كان ذلك قريبا من شاطئ البحر . انسربت داخل كابينة صغيرة ، ولم تلبث فيها سوى لحظات . مشت حافية على الرمل ، مشى الى جوارها ، وبدا واضحاً له أن ثمة جسداً كان مخبأ في أردية الشتاء الطويل ، يعلن الآن اندلاعه المتهور تحت الشمس . ركضت في الماء ثم ألقت صدرها وبطنها فوق الموج وسبحت مثل سمكة . كان يرقبها وهو واقف على رمل الشاطئ مشى في الماء بضع خطوات ثم رجع . نادته من بعيد كي يتبعها ، لكنه لم يفعل . جلس عند الشريط الذي يتلامس فيه الرمل والماء. كانت نهايات الموج تضرب قدميه، وكان ثمة حصى مغسول يجثم ساكناً دون اعتراض.

عادت مبتهجة ، عصرت شعرها الذهبي الطويل بيديها ، فركت جسدها بالمنشفة ، ثم فرشتها فوق الرمل ، ليس بعيداً عنه ، استلقت بأبهة واسترخاء ، أغمضت عينيها لتتقي أشعة الشمس وقالت: لماذا لم تنزل في الماء ؟ كان ذلك هو يومهما الأول قرب البحر.

حدثها عن معاناته في الزنازين . حدثته عن بعض تفاصيل حياتها . قالت إنها أحبت ذات يوم طالباً من أبناء مدينتها ، عرض عليها الزواج ، كادت توافق ، وحينما عرفت منه أن ثمة من يعرض عليه الهجرة ، للإقامة في مستوطنة بعيدة مبنية فوق أرض منهوبة ، رفضت الزواج ، وأنهت العلاقة معه . وقالت إنها وقعت بعد ذلك في حب طالب آخر وعدها بالزواج ، لكنه اشترط عليها منذ البداية أن تسكن مع أهله في المخيم الذي انتهوا إليه بعد أن طردوا من بلادهم ، فوافقت . وها هو قد أنهى تحصيله الجامعي ، وعاد الى المخيم قبل سنتين ، وها هي تتلقى منه الرسائل بين الحين والآخر ، وتنتظر اليوم الذي يأتي فيه ليصطحبها معه الى المخيم.

كان يصغي لها وهو مشفق عليها من مفاجأة . ثم تقطع حديثها دون سبب ، تجره من يده الى الماء، تشجعه على السباحة ، وحينما يربكه الموج ، كان يتعلق برقبتها ، يدخل صدره في تماس غير مقصود مع نهديها المتوفزين . قضت وقتاً غير قليل وهي تعلمه السباحة ، ركضت معه فوق الرمل ، دخلت معه في اشتباكات عابثة ، كانت تباغته بحفنة من الرمل ترشها فوق رأسه ، ثم تهرب مبتعدة ، فيتبعها راكضاً ، يقبض

عليها ، يلف ذراعيه حول خصرها ، يحملها عاليا بين يديه ، ثم ينزلها على الرمل ، تستلقي وهي تضحك ، يملأ راحة يده بالرمل ، يهددها بأنه سينعفه على شعرها ، لكنه لا يفعل ، يدني قبضته من القناة التي بين نهديها ، يسمح لبضع ذرات من الرمل بالتسرب من راحة يده، تشعر بالرمل يدغدغ أطراف النهدين ، تمعن في التمنع والضحك، ثم تفلت منه ، تركض ، يركض في إثرها الى أن يحل المساء.

ذلك المساء ، حينما مد يده الى نهدها بصراحة لا تحتمل التأويل ، أيقنت أنه يكرر ما حاوله معها الآخرون . صدته بخشونة ، وهي تحدق في وجهه بعينين قاسيتين. كان صامتاً مملوءاً بالندم، لا يعرف كيف يقدم اعتذاره ، وكانت هي الأخرى صامتة ، تتأمل بينها وبين نفسها كيف ستكون حياتها في المخيم البعيد.

فضاء

تذهب ومعها الطفل إلى السوق . بعد ساعة من الوقوف أمام المرآة ، كانت تغلق باب البيت وتمضي، غير آبهة لنظرات الجارات المتلصصات من خلف النوافذ . تمضي وفستانها ينسدل على جسدها بدقة متناهية وانسجام . كانت تنظر بسخرية لكل امرأة تخرج من بيتها ، فيبدو فستانها مشدوداً على بطنها من أمام ، وفي الوقت نفسه يكون مترهلاً خلف ساقيها ، فكأنه على وشك أن يلامس كعبيها . مثل أولئك النسوة في مثل تلك الحالة كن يظهرن لها وكأنهن قادمات من بحيرات للبؤس لا حصر لها. وكان أكثر شيء ينغص عليها متعة الظهور في الشارع أو في السوق ، أن تختل النسب الدقيقة التي تحكم المسافة بين نهاية فستانها والدانتيلا المدروزة على المحيط السفلي لقميصها الداخلي . كانت لا تطيق أن تجعل القميص الداخلي مشموراً الى ما فوق ركبتيها ، بحيث ينحسر أكثر مما ينبغي بعيداً عن أعلى صابونة الركبة ، وذلك ما تفعله نسوة حذرات ، يخشين من تهدل مفاجئ للقميص الداخلي ، مما يجعله عرضة للتسيب من تحت الفستان، ولا تحب التشبه بالنسوة اللواتي يتعمدن اظهار الدانتيلا وجزء من قماش القميص الداخلي الشفاف ، مما يجعل المشهد كله مثيراً للتوقعات. ولذلك كانت تطيل الوقوف أمام المرآة، ثم تخرج معتدة بجمالها وبأناقتها الى السوق ، ومعها الطفل تقوده من يده ، فلا يلتفت إليها، إنما هو منشغل عنها في مراقبة كل ما تقع عليه عيناه من بشر وأشياء. تتجول في السوق عدة ساعات ، تشتري شيئاً من هنا ، وشيئاً آخر من هناك ، وتظل تتنقل من حانوت الى آخر وهي مفتونة بما يتسرب الى أذنيها من كلمات اطراء ، يتلفظ بها مراهقون متنمرون ، أو رجال جاوزوا سن الشباب ، لكنهم يتشبثون بوقار مزيف ، لا يلبث أن يتكشف على حقيقته عند أقل

احتكاك، وتظل كذلك إلى أن تقترب الساعة التي يعود فيها زوجها موظف الحسابات من وظيفته، فتعود الى البيت لكي تطبخ طعام الغداء على عجل ، لكنها منذ لحظة دخولها البيت ، وقبل أن تفعل أي شيء آخر ، كانت تسارع الى غرفة نومها ، تتأمل نفسها في المرآة ، وتتأمل فستانها الذي ظل محافظاً على النسبة الدقيقة بينه وبين قميصها الداخلي ، الذي لم ينكشف للحظة واحدة في فضاء السوق.

يوم أمس ، كانت تعود مرتبكة الى البيت ، بعد أن لاحظتها الجارة النمامة وهي تلتقيها، صدفة، خارجة من أحد حوانيت القماش ، دون أن يكون الطفل معها (كان يرافقها في الطريق الى السوق، فأين اختفى ، أو أين ركنته) ! وكان قميصها الداخلي ينزلق بما لا يقل عن ثلاثة سنتيمترات أسفل فستانها ذي اللون الزهري الرشيق. ولن تصدق الجارة بعد أن عثرت على مادة خصبة للحديث ، أن المرأة كانت تجرب فستاناً جديداً ، وأن الطفل كان في تلك الأثناء يجلس عند خبيرة التجميل في المحل المجاور ، يحتسي عصير البرتقال ، وينتظر عودة أمه التي كانت تخلع فستانها القديم لتجرب آخر جديداً. (فيما كانت تخلع فستانها انحسر قميصها الداخلي الى أعلى . رأت البائع في اللحظة نفسها ، يطل برأسه من طرف الستارة ، متظاهراً بأنه يريد الاطمئنان إلى أن كل شيء على ما يرام. صدته بنظرة حازمة فابتعد . جربت الفستان الجديد بسرعة وهي ترتعد ، ثم خرجت إلى فضاء السوق يداهمها احساس غريب : فقد كانت مرئية أكثر مما ينبغي ، ولم تكن الستارة منيعة مثلما يجب) . حدث هذا والجارة النمامة تلوب ، أثناء ذلك ، على مقربة من المكان . وجسد المرأة يختلج ، على نحو غامض ، كلما جربت فستانا وراء ستارة من أي نوع كان.

مقهى آخر

يدخل المقهى متأبطاً أوراقه وصحفه ، ثم ينهمك في القراءة وهو يحتسي بين الحين والآخر رشفة من فنجان قهوته ، فلا يرفع رأسه الا بعد أن يأتي على الصحف جميعها . يطلب فنجانا آخر من القهوة ، يشربه على مهل كعادته ، وهو يتأمل حركة الناس في السوق الذي يمتد هابطاً من أمام المقهى ، يتمتم لنفسه بضع كلمات لا يسمعها أحد ، ولا ينتبه الى أن أفراد الأسرة الذين يعملون جميعاً في المقهى ، يراقبون كل حركاته وسكناته دون علم منه ، وبدافع الفضول البريء دون سواه.

كان يأتي إلى المقهى كل يوم تقريباً ، يحتسي عشرة فناجين من القهوة ، دون أن يكلم أحداً من رواد المقهى ، أو يلتفت الى أحد ، وكان يوزع وقته على القراءة ، ثم على

تأمل السوق ، وفيما تبقى من وقت ينهمك في كتابة أسطر عديدة ، يدونها بسرعة على أوراق يحملها معه دون انقطاع.

كف الأب عن الاهتمام به ، بعد أن أخبر أفراد الأسرة بأنه رأى حالات كثيرة مشابهة ، واختزل الأمر كله بالقول إنه واحد من الكتبة (يعني الكتاب) الذين ظهروا على فترات غير منتظمة في هذا المقهى أو ذاك ، خلال الخمسين سنة المنصرمة ، لكنهم مضوا جميعاً دون أن يتركوا أثراً وراءهم . كان الأب يقول ذلك ، ثم يمضي إلى خدمة زبائن المقهى ، كما لو أن العالم يسير على وتيرة واحدة لا يتعداها إلى سواها.

كان الإبن وزوجته الشابة حائرين في أمره ، خصوصاً بعد أن تكاثرت في المدينة ، الظواهر التي تدعو إلى الشك . كان الإبن حذراً بطبيعته ، وبالذات تجاه الأشخاص الذين لا يعرفهم ، أما الزوجة فقد استبد بها الفضول ، وبدت راغبة في معرفة المزيد عن هذا الرجل . كانت تتحين الفرص لذلك ، ولكن عبثاً ، والأسباب عديدة لا مجال للخوض فيها الآن . الوحيدة التي كانت قادرة على الوصول الى الرجل بكل سلاسة وانسياب ، هي الطفلة ، تقترب منه مثل قطة أليفة، يمسح على رأسها بحنان، ثم ينصرف عنها الى شأنه دون كلمة واحدة ، وحينما تطرح عليه سؤالاً بريئاً ، لم يكن يسمعها في غمرة انهماكه ، فتبتعد عنه بعد حين.

لكن انقطاعه المفاجئ عن المقهى أثار كثيراً من التوقعات الممزوجة بالقلق ، واكتشف الجميع، بعد فوات الأوان أن المقهى من دونه يعاني من نقصان . يؤكد الأب لأفراد الأسرة في ليالي السمر: لا بد إنه يقبع الآن في السجن ، يطمئن الابن الى هذا التفسير لحظة ، ثم ينقضه من أساسه بضربة واحدة حينما يقول : ربما تعرض لحادثة قتل من أحد المجرمين الذين ازداد عددهم في الآونة الأخيرة ، أو ربما غادر البلاد لعدم احتماله وطأة العيش فيها ، فيهز الأب رأسه مستبعداً كل ذلك . تبقى زوجة الإبن صامتة فلا تتدخل في لعبة التوقعات ، لكنها تشعر مثل الآخرين بالفراغ الذي تركه غيابه عن المقهى . تطرح الطفلة أسئلة كثيرة دون أن تظفر بأجوبة مقنعة ، فيعتريها نعاس مفاجئ ، ثم تذهب بصحبة أمها لتنام.

ذات صباح ، كان الأب يجلس متبرماً في انتظار الزبائن ، فجأة رآه مقبلاً نحو المقهى كالمعتاد ، فأبدى سروره لمرآه ، وقد فعل الإبن والزوجة والطفلة الشيء نفسه ، ثم جاءته الزوجة بفنجان القهوة في الحال . وتجرأ الأب هذه المرة على توجيه السؤال إليه عن أسباب هذا الغياب . كان الجواب واضحاً بسيطاً ، فثمة مقهى آخر يذهب إليه بين الحين والآخر ، مما يتسبب في مثل هذا الغياب.

لم يعد ثمة غموض في الموقف كله ، غير أن صورة الرجل لم تعد ترتسم في أذهان أفراد الأسرة، إلا وهي مرتبطة بمقهى آخر لا يعرفون عنه شيئاً ، لكنه حاضر على نحو لا يصدق ، إلى جانب مقهاهم هذا بالذات.

خطوبة

كانوا يتجمعون في البيت الذي يزيد عمره عن مائة عام ، يتبادلون الكلمات على نحو فاتر بين الحين والآخر ، ولا يتزحزحون من مواقعهم . كانت هي الوحيدة بينهم التي تكثر من الحركة ، تتنقل دون توقف بين غرفة نومها وصالة الضيوف والشرفة الخارجية التي أضيفت الى البيت مؤخراً أثناء المحاولة الثالثة لترميمه وإضافة غرف أخرى اليه ، لكي يتسع لكل هذا العدد من الأبناء والأحفاد.

كانت تبدو قلقة ، فثمة احتمال بألا يأتي الخطيب الموعود ، لأي سبب . ربما كانت فتاة أخرى قد راقت له في الساعات الثلاثين المنصرمة ، فعقد العزم على الارتباط بها دون غيرها ، وربما اعترضته دورية عسكرية فاقتادته مع آخرين من أبناء جيله الى السجن للاشتباه بهم ، أو ربما قامت إحدى نساء الحي الثرثارات ، ممن لا يحببن الخير لها ولأهلها ، بنقل وشايات ملفقة عن سلوكها ، مما جعله عازفاً عن الارتباط بها بعد الذي سمعه . عند هذا الاحتمال بالذات يزداد قلقها ، فتسارع الى غرفة نومها، تقف أمام المرآة ، تتأمل جسدها الغض ، فيؤكد لها جسدها بحسه العفوي أن كل شيء سيكون على ما يرام ، وتظل حائرة لا تدري هل تصدق جسدها أم لا تصدقه.

كانت تخرج الى الشرفة ، متجاهلة رجالات العائلة المغتبطين بخمولهم ، بعد أن ضجروا من تكرار هذه المناسبات ، فلا تعيرهم انتباهاً ، وتظل محدقة في المدى الذي تتوقع أن يطل منه خطيبها مع ثلة من أهله وأقاربه، ثم تمضي الى عمق الدار لا لشيء سوى مداراة قلقها ، الذي يكبر في صدرها على نحو ينذر بعواقب وخيمة ، فتعود الى الخزانة في غرفة نومها ، تخرج منها فستاناً آخر لم تلبسه سوى مرة واحدة حينما زفت صديقتها ، التي تعرف كل أسرارها ، الأسبوع الماضي إلى ابن الجيران.كان الجد الأكبر الذي خبر الحياة طوال قرن من الزمان مع ثلاث عشرة امرأة، يتابع خلسة بعينيه الواهنتين ، اندفاعات حفيدته ، فيتحسر على أيامه التي انقضت ولن تعود ، ولا يخرجه من هذيانه سوى صوت الحفيدة وهي تعود من الشرفة، لتعلن بفرحة غامرة أن خطيبها قادم في الطريق.

كان الخطيب أسمر الوجه ، وله عينان صغيرتان ، وكان الجد يحدثه باستفاضة

عن مشاعره حينما تمكن ، قبل ثمانين سنة ، من الانفراد بخطيبته التي أصبحت زوجته الأولى فيما بعد ، دون أن يسمع حفيدته التي كانت تتمزق غيظاً أمام نساء العائلة، لأنه لم يتوان عن احتجاز خطيبها منذ لحظة دخوله الى الدار ، فلم يترك لها فرصة واحدة للانفراد به ، وللتحديق اللذيذ في عينيه الصغيرتين.

شظايا

أنهض من قيلولة ما بعد الغداء على صوت المذياع ، أفتح عيني ، العتمة تملأ الغرفة ، ها أنذا قد نمت الى ما بعد المساء ، قلت : سأذهب الى بيت أبي وأمي لأشرب معهما الشاي . أنهض متأرقاً على دفعات ، والمذياع يجود علي بأصناف من البرامج التي تتوالى دون انقطاع ، برامج لا لون لها ولا طعم ولا رائحة ، ومع ذلك فهي تخترق أذني دون استئذان ، وتنجح على نحو ما في اعادتي أربعين سنة الى الوراء ، يوم كنت أحيا حياتي البسيطة في تلك القرية النائية ، الملل يستبد بي في نهاية يوم متعب من تدريس الأولاد المحتشدين في غرفة مدرسية ، ملاصقة لبيت تسكنه أسرة متوسطة الحال ، للأسرة ابنة جميلة أقسمت أمام أهلها أنها لن تتزوج الا من مدرس يأخذها الى السينما نهاية كل شهر، ويشتري لها ملابس ملونة من محلات المدينة التي تبيع أفخر الملبوسات . كانت البنت تقصدني، ولم أكن مبالاً لها لسبب ما . كانت تمر من أمام غرفة الدرس بثوبها المطرز وخديها الموردين ، تقف لحظات ، ترمقني بعينين ثابتتين ، كنت أبادلها النظرات ولا شيء أكثر من ذلك ، ثم أصرف التلاميذ، وأخرج الى ملعب المدرسة الذي يقع في وسط القرية ، بمحاذاة الجامع تماماً ، أنصب شبكة الكرة الطائرة، تأتي المعلمة الشابة النحيفة ، وتكون قد صرفت تلميذاتها بدورها ، وتعلن دون موارية عن رغبتها في اللعب ، وتكون هي الأنثى الوحيدة بيننا ، تجلس النسوة على أسطح البيوت المجاورة لمتابعة المباراة ، ويتجمع بعض أهالي القرية على أطراف الملعب ، ويظلون كذلك الى أن يؤذن المؤذن للصلاة ، يهرولون الى الجامع القريب لتأدية الصلاة ، والمعلمة في نهاية المباراة ، تقول إنها ستذهب الى بيتها الذي في طرف القرية ، تقول إنها ستستحم في الطشت لكي تتخلص من هذا العرق ، تفتح زراً آخر من أزرار قميصها ، ثم نفترق . أمضي الى بيتي ، أستحم ثم أنام ، ولا أصحو الا بعد المساء، ويكون المذياع مسترسلاً في سرد وقائع كثيرة لا تشد الانتباه ، يستبد بي الملل ، وأشعر أنني متروك في لجة النسيان . أفكر في المعلمة الشابة لحظة ثم أنساها . كنت أبحث عن امرأة قرأت عنها في الكتب ، ولم أعثر عليها بتاتاً.

أنهض من نومي ، عيناي تدمعان من مرض غامض . منذ أن توقفت عن القراءة ، لا أجد وسيلة للتسلية سوى المذياع الذي يعيدني دوماً أربعين سنة الى الوراء . يا إلهي !كيف مرت كل تلك السنوات ؟ وأين هي الآن تلك البنت الجميلة التي طال انتظارها

لفتى أحلامها ، ثم تزوجت أحد وجهاء القرية الذي يكبرها بعشرين سنة ، وأنجبت منه تسعة أولاد ؟ وأين هي المعلمة النحيفة التي لم تظفر بزوج ؟ سمعت أنها حاولت ذات مرة الانتحار ، لكنها لم تمت ثم عادت تواصل حياتها كالمعتاد.

أقطع تساؤلاتي العقيمة ، وأمضي في الحال الى بيت أمي وأبي ، أجد العجوزين منهمكين في حديث خافت يقطعان به الوقت البليد ، أحدق فيهما بإشفاق ، ولا أقول لهما إنني أرى الموت مقعياً مثل كلب عند عتبة الباب ، أراه تماماً ، أفكر للحظة أن أنتهره كي يمضي مبتعداً ، لكنني أخشى أن أثير انتباههما إليه ، فلا يعودان قادرين على العيش وهما يشعران به يتربص بهما لكي يأخذ أحدهما أو يأخذهما كليهما الى مملكته المعتمة المقيتة.

كنت أخفي عنهما كل شيء أراه ، وكانا يشربان الشاي في دعة ، لكنهما قالا حينما رأيا أنني أهرم قبل الأوان : نطلب من الله أن تعيش حتى تقبرنا بيديك هاتين.

في منتصف تلك الليلة ، قالت أمي انها رأته مقعياً مثل كلب عند عتبة الباب ، لونه فاحم مثل الليل وعيناه تقدحان شرراً . صاحت تناديني وهي مذعورة تماماً . كان أبي يغادر الدنيا ، وكانت عيناي تدمعان.